Kalamoon
The Syrian Journal for Human sciences
Peer-reviewed periodical Journal

قلمون

المجلة السورية للعلوم الإنسانية

فصلية محكمة
يصدرها
مركز حرمون
للدراسات المعاصرة

العدد الثالث والعشرون
نيسان 2023

2023 April

ملف العدد

اللجوء السوري في العالم الغربي

ضرورات الاندماج وتحولات الهوية

مركز حرمون
للدراسات المعاصرة
Harmoon Center
For Contemporary Studies

قلمون
المجلة السورية للعلوم الإنسانية

قلمون
المجلة السورية للعلوم الإنسانية

فصلية محكمة يصدرها مركز حرمون للدراسات المعاصرة
العدد الثالث والعشرون- نيسان/ April 2023

لا تعبر آراء الكتاب بالضرورة عن اتجاهات يتبناها "مركز حرمون للدراسات المعاصرة"
أو "قلمون: المجلة السورية للعلوم الإنسانية

KALAMOON
THE SYRIAN JOURNAL FOR HUMAN SCIENCES
PEER-REVIEWED PERIODICAL JOURNAL

مدير مركز حرمون للدراسات المعاصرة

سمير سعيفان

رئيس التحرير

يوسف سلامة

سكرتير التحرير

سماح حكواتي

أعضاء هيئة التحرير

أحمد جاسم الحسين
إليزابيث سوزان كساب
رشيد الحاج صالح
رهف الدغلي
ساري حنفي
سلاف علوش
عبد الباسط سيدا
محمد نور النمر

رئيس الهيئة الاستشارية

خضر زكريا

أعضاء الهيئة الاستشارية

أحمد برقاوي
بدر الدين عرودكي
جاد الكريم الجباعي
خطار أبو دياب
ريمون معلولي
عزيز العظمة
غسان مرتضى
هدى الزين
يوسف بريك

الإشراف اللغوي

سلاف علوش وسماح حكواتي

لوحة الغلاف للفنان نجم الدين سمان

الإخراج وتصميم الغلاف

باسل الحافظ

الناشر

مركز حرمون
للدراسات المعاصرة
HARMOON CENTER
FOR CONTEMPORARY STUDIES

هاتف
الدوحة، قطر: +974 44 885 996
إسطنبول، تركيا: +90 212 524 0404

صندوق البريد:
PTT P.K 57 إسطنبول، تركيا

البريد الإلكتروني: info@harmoon.org
الموقع الإلكتروني: www.harmoon.org

جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
على البريد الإلكتروني الآتي:
kalamoon@harmoon.org

Kalamoon dergisi
ISSN: 25481339

ISSN 25481339
9 770254 813398

© جميع الحقوق محفوظة لمركز حرمون للدراسات المعاصرة

نيسان/ أبريل 2023

المحتويات

أولًا: كلمة العدد 5

كلمة العدد — يوسف سلامة — 7

ثانيًا: ملف العدد/اللجوء السوري في العالم الغربي: ضرورات الاندماج وتحولات الهوية 11

تجليات المنفى في كتابات (أصوات نسائية في المنفى) — علاء رشيدي — 31

علاقة اللاجئات بالوطن والديار والأغراض في المنفى — إيناس حقي — 25

اللاجئون السوريون في ألمانيا والمشاركة السياسية والمدنية — طارق عزيزة — 37

تحدّيات العلاقات الأسرية والتربوية لدى السوريين في ألمانيا — علياء أحمد — 49

الهوية الاجتماعية ودورها في اندماج اللاجئين السوريين في فرنسا — طلال مصطفى وفراس حاج يحيى — 63

اللجوء السوري وهاجس الأمن والهوية الوطنية في أوروبا — عمارة عمروس — 85

الشّخصية السورية في السينما العالمية — علي سفر — 101

ثالثًا: الدراسات 117

ردّ الاستشراق الروسي على حمولات المصطلح وتمثّلات العرب — منتصر فايز الحمد — 119

التعدّد اللغوي في سوريا بين الماضي والحاضر — فاروق إسماعيل — 129

الواقع الاجتماعي في الرواية النسوية في ظل الثورة السورية — فاطمة عبود — 143

وساطة الجامعة العربية في النزاع السوري — خالد أبو صلاح — 155

رابعًا: ظواهروشخصيات 167

المسكوت عنه في رواية خيري الذهبي (لو لم يكن اسمها فاطمة) — ماجدة حمود — 169

تجلّيات العنف في تجربة الأسر عند خيري الذهبي — أسما معيكل — 181

خامسًا: مراجعات الكتب 197

بيئة الصحافة الإلكترونية العربية: سياقات التطور وتحدياته — عمار السمر — 199

الفيزياء الاجتماعية — عبد الإله فرح — 213

ردّ الاستشراق الروسي على حمولات المصطلح وتمثّلات العرب

ونظرات في كتاب (الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي)

منتصر فايز الحمد[1]

أولًا: ملخص

يعدّ مصطلح الاستشراق من أسرع المصطلحات تحوّلًا في عدد من اللغات توازيًا، وقد حصل ذلك كردّة فعل لنقاش أجّج شعلته الأكاديمي الفلسطيني الأميركي إدوارد سعيد في سبعينيات القرن المنصرم، عندما حاول إخضاع التجربة الغربية الأنجلو-فرنسية لدراسة تاريخية نقدية محاولًا استجلاء الصور النمطية السائدة في سياق (نكسة 67) وما بعدها. بيد أن سعيد لم يخف اندهاشه -لاحقًا في كتابه (الثقافة والإمبريالية)- من الحمولات الحدّيّة التي خرجت في كثير من الأحيان عن المعاني التي تغيّاها ابتداءً.

وعلى الرغم من أن الاستشراق يعدّ مدرسة من مدارس التفسير، ازداد الولع بالموضوع من قبل طرفي المعادلة الاستشراقية بين المصدّر الغربي والآخر العربي بعد وسم الاستشراق باعتباره أداة استعمارية كولونيالية ومذهبًا سياسيًّا، وحاول المدرسة الروسية جاهدةً النأي بالذات عن ذلك الوسم؛ إذ قدّمت مصطلح (الاستعراب) بديلًا مستبقة الجدل بعقود منذ كراتشوفسكي للتطهّر من تلك الرؤية السلبية، وللإيمان بفلسفة الدولة الروسية القارية منذ ما قبل الاتحاد السوفياتي.

ويحاول هذا البحث رصد التحول في المصطلح ودوافعه الفلسفية ومحاورة مبرراته التاريخية الاجتماعية. ومع كل ذلك، فإن سيل الكتابات التي تطرّقت لموضوع الاستشراق والعرب كثير، ولكننا نلحظ شحّا نسبيًا في اتجاه دراسة الاستشراق الروسي لعدد من العوائق جلّها يقع في جهل (الآخر) الذي يمكن أن يدرس العرب بوصفهم (آخر).

يرنو هذا البحث إلى الإجابة عن عدد من التساؤلات التي يتناولها البحث في عناوينه الفرعية بالاتكاء على منهج النقد التاريخي، ولكنه في الوقت نفسه يضع القارئ في صورة الجدل القائم حول النقطة محل النقاش، ثم يأتي البحث على مراجعة نقدية لكتاب (الاستشراق والعالم الإسلامي) الذي صدر مؤخرًا عام 2022 للبروفيسور محمود الحمزة بوصفه نموذج البحث. صدر بعد عقد من المشاركة العسكرية الروسية في سورية دعمًا للنظام السوري أدّى إلى قلب المعادلة ضد الربيع السوري. وممّا يحسب للكاتب إلمامه العميق المباشر من خلال عيشه المفارقة الشعورية الفكرية، فهو لم يبرح استقلالية التفكير العروبي على الرغم من تكوينه في المدرسة الاستشراقية الروسية، فكان الكتاب (رؤية من الداخل) بسردية تبنّاها الكاتب.

ثانيًا: مقدمة

يصدر كتاب ((الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي: من تاريخ الاستشراق ودراسات الاستعراب العلمي في روسيا))

(1) أكاديمي في مركز اللغة العربية للناطقين بغيرها في كلية الآداب والعلوم بجامعة قطر.

للأكاديمي محمود حمو الحمزة[2] في بدايات العام[3]2022 متزامنًا مع أحداث غاية في الدقة من الناحية السياسية وهي التدخّل العسكري الروسي في أوكرانيا على المستوى الدولي ممّا أثار العديد من الردود الدولية السريعة التي طالت البنى التحتية للدولة الروسية ومؤسساتها، ومنها الأكاديمية والفكرية، بوصفها التأصيل النظري الفلسفي التي ارتكز عليها جنوح الدولة إلى الخيارات العسكرية مما قد يعده بعضهم امتدادًا لظاهرة (الإمبريالية الدفاعية الروسية)[4]. وهي التساؤلات ذاتها التي طرحت في وقت سابق على المستوى الدولي حول التدخلات العسكرية الروسية في سورية تحت غطاء شرعية منقوصة لنظام استبدادي، وهو ما فعلته حتمًا في ليبيا تحت مسوّغات شبيهة.

يجتهد هذا الكتاب في تجلية الصورة بالعودة بنا إلى جذور العلاقات الروسية العربية، ويركّز على المنطلقات الفلسفية والتاريخية التي أنتجتها الأكاديميا الروسية وانعكاسات ذلك على المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها[5]. إذ إن الحمولات التي شكّلها احتكاك الكيان الروسي -بوصفه وطنًا لا دولة أو حكومة- مع محيطه العربيّ والإسلامي يخضع لثنائيات متناقضة ومتعاكسة في آن معًا.

ثالثًا: الاتصال الحضاري العربي الروسي

يمكن أن نقسّم العلاقة بين العرب والمسلمين[6] بالوطن الروسي على أربع حقب منذ تأسسه[7]، انتابت هذه العلاقة مظاهر الاحتكاك الحضاري المختلفة بين مدّ وجزر. طغى عليها الجانب التنافسي المتمثّل بالميول التوسعيّة لكلا الحضارتين على حساب الأخرى بحكم الجوار الجغرافي[8]، ولعب البعد الديني موجّهًا لتلك العلاقات وصابغًا تلك العلاقات[9]. وشهدت العلاقات توترًا كبيرًا في مراحل تاريخية ومعاصرة كثيرة.

وبالمقابل، فإن التمدّد العسكري قد شكّل أذرعًا سياسية واجتماعية دخلت في عمق المجتمعين على مرّ ثمانية قرون من الاحتكاك المباشر، نتج عنه فهم أفضل للآخر، والوصول إلى استراتيجيات تعايش وتبادل. يمكن أن نعدّ إرهاصات العلاقة بين العرب والروس بوصف العرب والمسلمين هم أصحاب (الفعل) الفعل الاستكشافي والعلمي المتمثّل في بحوث المسعودي[10] وابن فضلان[11] وكتابتهما عن الآخر الروسي الصقالبي البلغاري، ووضع الآخر محل الدرس والتمحيص لغايات لا تخلو من الاستثمار السياسي. ولم الأمر بوصفه فعلًا من طرف الروس بل (رد فعل).

وقد خضعت الإمارات الروسية في بعض العصور للحكم الإسلامي التتاري ودفعت الجزية له إبان حكم خانية القبيلة الذهبية لتنسجم معه سياسيًا وعسكريًّا، واستعانت به على (الآخر) الغربي الكاثوليكي لأن المسلمين المغول أقرّوا القائد الروسي -آنذاك- الأمير ألكسندر نيفيسكي (1221-1263) على دينه مقابل الجزية. وكانت روسيا نفسها ضحية الحملات الصليبية الكاثوليكية على أراضيها، وبالأخص

(2) محمود حمو الحمزة أكاديمي سوري الأصل والمولد (مواليد 1954م) ومقيم حاليًا في روسيا، وتخرّج في جامعاتها عام 1980م، وقد درس فيها. تنقل في عمله الأكاديمي بين دول عدة، وله عشرات المؤلفات المنشورة. وقد شرفت بالتعرف إليه في أعمال جمعتنا تتعلق بخدمة اللغة العربية في روسيا، وجرت بيننا حوارات أظهرت عمق اطلاعه على الفضاء الأكاديمي الروسي ضمن سياقاته الاجتماعية والسياسية واللغوية، إضافة إلى تشعّب علاقاته في هذه الميادين، ويمكن للقارئ أن يتعرف على البروفيسور الحمزة من خلال ما عرضه في سيرته الذاتية (نبذة عن المؤلف) في بداية كتابه. محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي: من تاريخ الاستشراق ودراسات الاستعراب العلمي في روسيا، (الدوحة: مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث للأكاديمية، 2022)، ص7-14.

(3) محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي: من تاريخ الاستشراق ودراسات الاستعراب العلمي في روسيا، (الدوحة: مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث للأكاديمية، 2022).

(4) يقول برونو في تقديمه هذه الظاهرة: ((ونظرًا إلى شعورهم بالخطر فإن الروس يبادرون لفتح هذه المناطق، إلا أن كل توسع جديد كان يضعهم في مرة أمام مناطق (غير مستقرة) جديدة يرون ضرورة إخضاعها وتأمينها بدورها، وكانت حركية التوسع تبرر دائما بدوافع أمنية أو دفاعية، حتى أن عدة مؤرخين معاصرين وصفوا هذه الظاهرة بـ"الإمبريالية الدفاعية" الروسية")). ميشيل برونو، أوراسيا: قارة، إمبراطورية، أيديولوجيا أو مشروع، معاوية سعيدوني (مترجمًا)، جان جبور (مراجعًا)، ط1، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، 2021)، ص195.

(5) محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي: من تاريخ الاستشراق ودراسات الاستعراب العلمي في روسيا، ص25.

(6) يدخل المسلمون هنا مع العرب بتحفّظ شديد إذ يمكن أن نعدّهم شقًّا آخر في هذه الدراسة حتى من وجهة نظر المدرسة الروسية للاستشراق التي وجهت دراساتها نحو الاستعراب.

(7) ((يعتبر عام (860م) عام ذكرى يحتفل بها شعب روسيا، فقد أشير في هذا العام لأول مرة إلى روسيا في المصادر المكتوبة)). سعدون الساموك، الاستشراق الروسي: دراسة تاريخية شاملة، ط1، (عمّان: دار المناهج، 2003)، ص26.

(8) إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، كمال أبو ديب (مترجمًا ومقدمًا)، ط1، (بيروت: دار الآداب، 1997)، ص81.

(9) يناقش الحمزة السياق السياسي الديني للاهتمام بالمشرق وذلك لدعم الإمبراطورية البيزنطية (الحمزة 98، 99).

(10) محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي: من تاريخ الاستشراق ودراسات الاستعراب العلمي في روسيا، ص 128-134.

(11) محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص138-153.

(نوفجراد) في عام 1240م بإعلان مقدس من البابا جورج التاسع، والتي سرعان ما انتهت بعد الهزيمة الساحقة لجيوش الكاثوليك الغربيين في المعركة على الجليد في عام 1242م بالقرب من مدينة سان بطرسبرغ الحالية. وربّما كان أصل هذه الفكرة بأن المسلمين ليسوا قوة ثانوية على خلاف النظرة الغربية[12].

وبعد تشكل القيصرية[13] الروسية على يد إيفان الرابع (الملقب بـ (الرهيب)) بعد تتويجه في عام 1547م على أنقاض الإمبراطورية القارّية السابقة للمغول التتار، تنامى الطموح التوسعي تحت مبررات وتسويغات مختلفة، وظهر النسر ذو الوجهين رمزًا لهذه الدولة وانعكاسًا لهذه الرؤية والفلسفة[14]. ولعل ما يعني البحث هنا مرحلة بطرس الأكبر (1672-1725) الذي دعت الحاجة في عهده إلى التعرف إلى الآخر العربي، أو ذي الإرث العربي الإسلامي نظرًا للطموح التوسعي شرقًا، كما كان ثمة دافع سلبي آخر يعزّز تلك الرغبة، وهو الحروب مع تركيا على القرم والقوقاز، كما تبدّت أهداف روسيا التوسعية في الوصول إلى البحر الأسود وبحر البلطيق[15]. ومن هنا تنامت الحاجة لمعرفة الشرق لخدمة الأغراض السياسية، إذ أثّرت تأثيرًا بالغًا في نمو الأدوار المعرفية لأنْوِيَة مدرسة الاستشراق الروسي التقليدي، وكان من بواكيرها ترجمة القرآن الكريم، ونسخ بقايا الكتابات العربية المحفوظة في مدينة بلغار، وتأسيس أولى مدارس الترجمة، ودخلت أول مطبعة عربية إلى موسكو، ونشطت في عهده أيضًا الإرساليات والبعوث العلمية إلى الشرق، وبتلك الأعمال انطلقت مسيرة المؤسسة العلمية الروسية لدراسة الشرق أو العرب.

وفي الحقبة القيصرية ذاتها، برزت الإمبراطورة كاثرينا العظيمة (1729-1796) التي وسّعت دائرة الاهتمام بالدراسات العربية والإسلامية منذ تولّت الحكم في عام 1762م، فمنحت الحريات الدينية[16]، وانتشرت في عهدها الترجمات من العربية وإليها بطريق لغات أخرى، كما أصدرت القواميس، وغير ذلك... مما جاء استجابة لمرحلة حكم مزدهرة من الناحية الاقتصادية والتوسعية المناطقية.

وبعد الثورة البلشفية على القياصرة الروس في بدايات القرن العشرين، تأسس الاتحاد السوفياتي، وتبنى الفكر الشيوعي، ما أكسب روسيا السوفياتية رؤى مختلفة متباينة ومتأرجحة في إدارتها علاقتها مع الشرق -كما كان حاله مع الغرب- إذ ورث إمبراطورية قارّية من روسيا القيصرية، ولكنها ما لبثت أن شكلت المجال الروسي الأكثر اتساعًا في التاريخ. وقد انعكست أولويات الحكم والأمن والأيديولوجيا على الرؤى السياسية للدولة[17]، وهو ما صيغ في تناولات المدرسة الروسية للاستشراق فيها، حتى دعاها بعض الباحثين بمرحلة (الاستشراق السوفياتي) أو (الاستشراق الأحمر) تفريقًا لها عن سيرورة المدرسة الروسية للاستشراق. وهي مرحلة حاولت جاهدة ملاحقة الفلسفة البلشفية ثم الشيوعية ثم الستالينية عوضًا عن قيادتها في النظر إلى الشرق التي استندت إلى حد بعيد إلى فكرة (تصدير الثورات الشيوعية) عن طريق الأحزاب الشيوعية المناصرة لها، فشهدت تلك المرحلة التعاطف الكبير مع الشعوب الشرقية والمسلمة بوصفها شعوبًا كادحة مضطهدة ترنو إلى الحرية، وتحويل مناطق الأقليات المسلمة فيها إلى جمهوريات ذات حدود إدارية مهّدت لاستقلالها بعد تفكك المنظومة السوفياتية[18]. ولكنها في الوقت نفسه، كانت أول من اعترف بالكيان الصهيوني على أرض فلسطين، على أمل أن تكوّن دولة الاحتلال الإسرائيلي منارة اشتراكية تابعة لها في الشرق[19]. وبالمقابل ارتبطت هذه المرحلة بالتأثير -وإن كان محدودًا- من طرف الاتحاد السوفياتي في المثقفين العرب مقابل عدم القدرة من المثقفين العرب على التأثير فيه[20].

أما في روسيا الاتحادية في المرحلة البوتينية، فقد استندت في أحيان كثيرة إلى انتشار أفكار الفيلسوف الروسي ألكسندر دوغين في مفاصل صناعة القرار في

(12) محسن الموسوي، الاستشراق في الفكر العربي، ط1، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1993)، ص15.

(13) من المفارقة أن لقب (قيصر) أخذه الروس عن المغول التتار الذين أخضعوهم لقرنين من الزمان (برونو 194). وهو مما اصطلح عليه ابن خلدون في نظريته الشهيرة في (تعلق المغلوب بالغالب).

(14) ولعل مرحلة تشكل دولة موسكو الروسية المركزية الموحدة أحدثت تغييرات أنثروبولوجية جوهرية في تركيب الشعب الروسي. محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص136.

(15) ميشيل برونو، أوراسيا: قارة، إمبراطورية، أيديولوجيا أو مشروع، ص201-203، 211-212؛ سعدون الساموك، الاستشراق الروسي: دراسة تاريخية شاملة، ص32-33.

(16) ومثال ذلك: ((في عام 1789 شجعت كاترين الثانية استقرار الرجل المسلمين. وأنشأت المجمع الديني الإسلامي المكلف بمراقبة رجال الدين، ... ووضع هذا المجمع تحت وصاية وزارة الداخلية. وهكذا نجحت الدولة الروسية في الإسلام من إطار مؤسساتي تحت سلطة غير دينية... وكانت الاستراتيجيا الروسية تجاه المسلمين، كما تجاه اليهود، تقوم على الاحتواء وليس الطرد)). (ميشيل برونو، أوراسيا: قارة، إمبراطورية، أيديولوجيا أو مشروع، ص210).

(17) ميشيل برونو، أوراسيا: قارة، إمبراطورية، أيديولوجيا أو مشروع، ص214-218.

(18) سعدون الساموك، الاستشراق الروسي: دراسة تاريخية شاملة، ص32-33.

(19) فيتالي نعومكن، „المقابلة مع على الظفيري: فيتالي نعومكن، كبير المستشرقين الروس „، شبكة الجزيرة الإعلامية، (2021)، shorturl.at/jqrBR.

(20)إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ص122.

النظام الروسي[21]، التي ارتكزت على رؤيته موقعيّةَ روسيا في العالم، ونظريّته في التحوّلات العالمية التي تجلّت في (النظرية السياسية الرابعة) التي ترتكز على تشكل (الأوراسية الجديدة)، لتشكّل بذلك عنصرًا من عناصر القوة الروسية في التحالف مع مكوناتها الشرقية الداخلية، إضافة إلى المكونات الشرقية الخارجية في آسيا، وهو الأمر الذي يحاول بوتين جاهدًا تتبّعه وتمكين مؤسساته[22]. ويشيد المستعرب فيتالي نعومكن بالدور الذي يضطلع به بوتين في رعاية المؤسسات الأكاديمية والفكرية في بلاده، فهو -بحسب نعومكن- حريص على تنميتها واستقرارها وعدم تسرّب مزيد من الطاقات الروسية في هجرة العقول إلى الغرب، وذلك من خلال خلق مناخات مواتية تسمح للعلم والعلماء بالتطور والمنافسة[23].

رابعًا: الاستشراق والاستعراب

لا بد في البداية من فهم (الاستشراق) بوصفه أداة لفهم (الآخر)، وتطويع هذه الأداة للوصول إلى الغايات المتوخاة منها يخضع للمنطلقات والدوافع التي تأسس عليها. فليس ثمة استشراق واحد كوني الطابع والمنطلق، كما لا يمكننا أن نطلق الأحكام يمنة ويسرة على سائر دارسي الشرق جميعًا.

ولعل أهم ما يغذي هذا التطرف هو الدفع السياسي المشوب بالرؤى المقولبة مسبقًا عن الكيانات المختلفة، بحيث تتم (شيطنة) الآخر من حيث هو (الكافر) أو (المنافس) في مراحل الاستشراق الروسي التقليدي أو (الإقطاعي) (المتسلط) في مرحلة الاستشراق السوفياتي، ومن هنا حاولت بعض أبواق النظام السياسي أو المتماهي معه الدندنة على هذا الوتر.

ومن هنا تشكّلت مدرسة الاستشراق الروسية التي باتت تعرف لاحقًا بمدرسة (الاستعراب)[24]، وهي مدرسة تُعنى -كما تدّعي- بفهم (الآخر) العربي أو المسلم الذي ارتبطت به بصلات وعلاقات من خلال الخبرة التاريخية الممتدة مع المسلمين بحكم الجوار وتبادل أدوار الحكم بينهما منذ عهد خانية دولة القبيلة الذهبية من التتار المسلمين في القرون الوسطى (القرنين 13-15 ميلادي)، ثم انتقال الحكم إلى الإمارة الموسكوبية (1472م) قائدة الإمارات الروسية التي سيطرت تباعًا على الميراث الجغرافي والسياسي والإنساني للتتار المغول، ولكنهما -أي الدولتين- أبقتا على احترام الآخر بوصفه تبعًا سياسيًا في الحالة التترية، أو أقلية إثنية أو عرقية في الحالة الروسية، مع حدوث انتهاكات دموية وتطهيرية مؤسفة.

وبناء على ما سبق، يركّز المستشرقون الروس على عدّ دراساتهم جزءًا من حملة معرفية في بداياتها في القرن الثامن عشر، لتدخل في مرحلة المأسسة العلمية في بدايات القرن التاسع عشر، واستمرت على ذلك النهج، ويصرّ كثير منهم -خاصة بعد كراتشوفسكي (1883-1951)[25]- على إطلاق مدرسة (الاستعراب) على دراساتهم بوصفهم جزءًا من الشرق لا ينفصل عنه تاريخيًّا أو دينيًّا أو تراثيًّا أو جغرافيًا، كما أن لغتهم هي لغة بعض الشعوب والأقليات المسلمة الأوراسية، بخلاف المدرسة الغربية في الاستشراق ذات النظرة الفوقية -بحسب إدوارد سعيد- التي تلعب دورًا وظيفيًا بوصفها أداة كولونيالية استعمارية، لم تنعتق عن الدراسات اللاهوتية ذات الدوافع التنصيرية.

وإن كان الدافع -كما يروّج له المستعربون الروس- علميًا؛ فإن الموضوعية العلمية المتجرّدة ستعين على فهم الآخر كما هو دون شيطنة أو تحامل ثقافي، ولكن هذا لا يعني في الوقت

(21) وهي أفكار تروّج لإحياء الشعور القومي الروسي، وهو فكر توسعيّ بالمفهوم الحديث للتوسّع لا يقبل بالأحادية القطبية التي فرضت على روسيا الاتحادية في مرحلة ما بعد تفكك الاتحاد السوفياتي، ولذلك حاول صياغة تحالفاته مع الآخر الشرقي والغربي بناء على تلك الفلسفة.

(22) محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص120-121. كما روّج لنبأ إصدار بوتين -إبان الحرب الروسية على أوكرانيا- مرسوم رئاسي يقضي بالسماح بنشر واستنساخ كتاب (صحيح البخاري) الذي كان تم منع بمرسوم رئاسي روسي في وقت سابق، ممّا فُهم على أنه مغازلة للمكوّن المسلم داخل روسيا الاتحادية لتعزيز موقف روسيا القتالي في إضافة تبريرات أخلاقية تستخدمها القيادات الموالية لبوتين في تلك الأقليات المسلمة للمشاركة في تلك الحرب.

(23) خلال اللقاء المطوّل في برنامج (المقابلة) الذي يقدمه المذيع علي الظفيري مع رئيس معهد الاستشراق الروسي المستعرب فيتالي نعومكن رفض الأخير تعميم الأحكام التي تولدت عن النظرة السلبية للاستشراق وفصل ما بين الاستشراق الغربي والروسي (الجزء الأول: الدقيقة 46:09-48:09)، والاستشراق الروسي هو ما كان جاء على وصفه في معرض الحديث حول العلاقات الروسية-العربية الإسلامية (الجزء الأول: الدقيقة 36:17- 46:08)، وأكد على كونه صديق العرب. وفي معرض السؤال عن صلته بالرئيس الروسي بوتين والذي كان قد قلّده وسامًا رفيعًا (جائزة الدولة) لجهده في مجاله الأكاديمي أشاد به لإسهامه في تشكيل إيجاد رؤية خاصة عن العرب (الجزء الأول: الدقيقة 33:27- 36:10)، أكّد عن بالغ احترامه للدور الذي قام به بوتين خلال تولّيه السلطة في خدمة العلم والعلماء وخلق بيئات حاضنة للفكر متحررة أيديولوجيًا. (الجزء الأول: الدقيقة 13:30- 16:15).

(24) لعلّ عرّاب هذه التسمية هو المستعرب الروسي إغناطيوس كراتشوفسكي، خاصة في كتابه (نبذة من تاريخ الاستعراب الروسي) المنشور في عام 1950م، وبعد ذلك بعقد نشر المستعرب الروسي جريجوري شارباتوف كتابه ((الاستعراب في الاتحاد السوفييتي)) عام 1961م. وحول الدوافع وتشكل هذه المدرسة، انظر: الحمزة 43-53.

(25)محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص179-182.

نفسه أن استخدام هذه المعلومات المستقاة من الدراسات الاستعرابية ستصبّ حتمًا في جانب العرب أو المسلمين بل ستخدم من يتناولها من السياسيين والاقتصاديين والعسكريين والأدباء كل بحسب تناوله وكيفية توظيفه تلك المعلومة، فذلك كله خاضع لمعادلات أخرى من الاحتكاك الحضاري.

خامسًا: الدراسات السابقة

منذ صدور كتاب (الاستشراق) لإدوارد سعيد في نهاية سبعينيات القرن العشرين[26]، وقد أثار الكتاب ضجة كبيرة ومواقف متباينة استمر الجدل حوله لسنوات عدة، وعدّه بعضهم بمنزلة (إطلاق رصاصة الرحمة) على الاستشراق بالمفهوم التقليدي للّفظ[27]. وقد ارتبط (الاستشراق) لدى سعيد بالفعل الإمبريالي وصياغة التمثّلات عن الآخر الدنيوي[28]. وساعده في ذلك تبحّره في المصادر من مظانّها الأوليّة -إنكليزية أو فرنسية- ومحاورته النقدية الماهرة الحاذقة لها بناء على منهجية جمعتها لتشكل أطروحة يتكئ على النصوص التي استقاها من تينك اللغتين تحديدًا لارتباطهما الإمبريالي الماورابحاري[29] ولكنه في المقابل لا يعد الإمبراطوريات الأخرى الاستعمارية أقل إمبريالية أو موضع قبول[30].

ارتبطت صورة نمطية بالمصطلح نفسه، لم يخف سعيد قلقه من هذا التحوّل المفاهيمي للمصطلح الذي اكتسب معنى تجريحيًا وتشهيريًّا في الوقت ذاته[31]، وفقدت اللفظة معناها المحايد[32] بل شعر أن الفهم خرج عن مراده، وأمسى كتاب الاستشراق ((بطريقة بورخيسية[33] تقريبًا جملة كتب مختلفة... هذه التعددية العريضة الغريبة والمقلقة وغير الواردة في الحسبان))[34]، وهو الأمر الذي دفع دبّاشي لقوله إن سعيد أخرج المصطلح عن مراده لتحامله غير الموضوعي اتكاءً على قراءة خاطئة لبعض المستشرقين من أمثال غولد تزيهر[35].

وكما أسلفنا، فقد تركّز الجدل الدائر حول الاستشراق ومفهوماته في الدوائر الأكاديمية على الاستشراق الغربي خصوصًا، وغابت الدراسات الجادة والموضوعية لمدرسة الاستشراق الروسي بالقدر الذي تستحقه، لعوامل داخلية وأخرى خارجية، فمن أهم العوامل الداخلية اللغة الروسية التي لم تنتشر بين الأوساط الأكاديمية العربية في الحقول الإنسانية، وشحّ الدعم للمراكز البحثية فيها[36]، والتقلّبات السياسية التي وجّهت الحقول الإنسانية أيديولوجيًا، والمنطلقات النظرية التي رافقت كل مرحلة، فتجد (النظرية النورماندية) الليبرالية التغريبية في العصر القيصري، وحصلت على تأييد الكنيسة الروسية الأرثوذكسية[37]، لتنقل إلى (النظرية السكيفية) المحافظة القومية المفعمة بالرؤى الشيوعية في الحالة السوفياتية[38]، والانتقال منها

(26) صدر الكتاب عام 1978 باللغة الإنجليزية، ثم صدرت نسخته العربية الأولى عام 1981 عن مؤسسة الأبحاث العربية في بيروت بترجمة البروفيسور كمال أبو ديب تحت عنوان ((الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء))، ولكن البحث هنا يعتمد النسخة الحديثة من الترجمة للدكتور محمد عناني عن دار رؤية في القاهرة تحت عنوان ((الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق)).

(27) حميد دبّاشي، ما بعد الاستشراق: المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب، باسل وطفه (مترجمًا)، ط1، (ميلانو: دار المتوسط، 2015)، ص45، 46.

(28) يقول سعيد في هذا المضمار: ((يمكن اعتبار الاستشراق منهجًا من المناهج الملتزمة بنظام معين (أو بصورة خاصة للشرق) في الكتابة والرؤية والدراسة، تسوده قواعد ملزمة، ومنظورات خاصة، وانحيازات أيديولوجية ملائمة في الظاهر للشروق... [صاغت صوره التي تمثله] مجموعة كبيرة من القوى التي أدخلت الشرق في مجال العلوم الغربية، والوعي الغربي، وبعد ذلك بفترة في إطار الإمبراطورية الغربية)). إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، محمد العناني، (مترجمًا ومقدمًا)، ط1، (القاهرة: دار رؤية، 2006)، ص319.

(29) إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ص81، 147-148، 244-245.

(30) إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ص67.

(31) إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ص9.

(32) إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، صبحي حديدي (مترجمًا ومحررًا)، ط1، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1996)، ص116.

(33) الطريقة البورخيسية: وهو إشارة إلى الأسلوب الأدبي المعروف بأسلوب (القراءة في الأعمال التخيليّة) الذي اتبعه الكاتب الأرجنتيني المشهور خورخي بورخيس (1899-1986)، يعمد فيها إلى محاورة نص متخيّل ومناقشته وكأنه قد كتب ونشر بالفعل.

(34) إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، ص100.

(35) حميد دبّاشي، ما بعد الاستشراق: المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب، ص108-110، 125-127.

(36) محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص446.

(37) يؤكّد الحمزة على أن عامل الدين لعب دورًا استعماريًا في بعض مراحل الدراسات الاستشراقية الروسية ارتبط بدوائر الاستخبارات في العصر القيصري، خاصة في محاولاتها تقديم العون والحماية للمسيحيين الأرثوذكس العرب في بلدانهم والحصول بالمقابل على الوصاية عليهم (الحمزة 97-100).

(38) يفرد الحمزة لمعاناة المستعرب خالدوف في تلك الحقبة، فيقول: ((وقد تعرض للتحقيق أكثر من مرة من قبل المخابرات السوفياتية لعلاقته بطالب كان يحمل أفكارا سياسية معارضة للنظام السوفييتي)) (محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، 205)، ويقول في باب آخر عن التوجيه السياسي للبحث العلمي: ((وبعد التدخّل العسكري السوفييتي في أفغانستان في عام (1980) وجّهت الحكومة السوفياتية بالاهتمام بالإسلام المعاصر. وشكلت مجموعة برئاسة بريماكوف (مدير معهد الدراسات الشرقية آنذاك) لهذه المهمة السياسية)). (الحمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص207).

إلى التيه الليبرالي في عهد يلتسن[39]، ثم التأثر بالنظرية (الأوراسيا الروسية) في عهد بوتين[40]، ومع ذلك تشكّلت ارتدادات على العوامل الداخلية، فالستار الحديدي الذي نشأ بين الشرق والغرب ألقى بظلاله على الدول التابعة في المنطقة العربية، والنأي بالنفس عن التعامل مع الأفكار (الهدامة) المرتبطة بمفهوم (تصدير الثورة)، بحيث غاب الدرس المنهجي النابع من مصالح المنطقة وشعوبها تجاه الآخر الروسي ومصادرته بالكامل للصورة المصدّرة من الغرب الثقافي.

ومن هنا لم نجد كثيرًا من الكتب التي تصدّت لهذا الموضوع، بحيث تقدّم هذه المدرسة -أو كما يحلو لبعضهم وصفها (الحركة)- الاستشراقية، بل عددًا محدودًا من الأبحاث، وقليلًا من الكتب إضافة إلى كتابات لا تعدو كونها ثقافية عامة في جنبات الشابكة.

ومن المصادر العربية -وأستثني ما كتبه الروس وغيرهم عن الموضوع- التي تناولت الاستشراق الروسي بوصفه موضوعها الرئيس لا الفرعي، عدد من الكتب بحسب ترتيبها الزمني، كتيب (إضاءات على الاستشراق الروسي) لمؤلفته فاطمة عبد الفتاح عام 2000، وقد جاء مختصرًا أقرب إلى المدخل الثقافي منه إلى المبحث العلمي المفصل، ويتضح ذلك من شح المصادر، وقلة المناقشات، وخلوّه من التحليل. ثم ما لبث أن قدّم عبد الرحيم العطاوي كتابه الموسوم (الاستشراق الروسي: مدخل إلى تاريخ الدراسات العربية والإسلامية في روسيا) في عام 2002، أتى فيه على السياق التاريخي للمبحث، وركّز بتفصيل منهجي على مؤسسة المدرسة الاستعرابية الاستشراقية المتمثلة في الجامعات والمعاهد والمكتبات، وتناول عددًا محدودًا من المستشرقين بالعرض، ولعل من رجاحة عمله اطلاعه الواسع بوصفه مترجمًا على اللغة الروسية ومنها على الأدب الروسي خاصة. وقد تبعه في عام 2003 سعدون الساموك في كتابه (الاستشراق الروسي: دراسة تاريخية شاملة) حوى التقديم التاريخي، وقوّم المدرسة الروسية للاستشراق من منظور عربي إسلامي محافظ، ثم حاول استعراض التأثير والتأثير العكس لهذا الاستشراق، أردفه بإيراد عدد محدود من المستعربين الروس مع مناقشة بعض أعمالهم، ولكن ما ميز هذا الكتاب تجميعه في آخر الكتاب ملحقًا تحت عنوان (ملحق بالإصدارات الاستشراقية الروسية والسوفياتية)، ولكن ضعف الكتاب أنه اعتمد على المصادر غير الأولية، إذ خلت قائمة المصادر من المصادر الروسية. ثم في عام 2019م نشر ميثم الجنابي كتابه (الاستشراق والاستعراب الروسي: المرحلة التأسيسية) الذي خصّه لدراسة بعض المنطلقات التأسيسية في مدرسة الاستشراق الروسية، وأثر المخطوطات في تكوين الوعي بالشرق ثم عرض بعض أعلام الاستشراق، وعلى الرغم من الزخم الشديد بالمعلومات إلا إن صياغة الكتاب لم تكن علمية، وخلت من الإحالات أو قائمة للمصادر والمراجع، لم يكن في الكتاب ملحقات تعين القارئ على التوسع.

ونجد بعض المصادر الثانوية في المجال، من مثل أبحاث علمية وصفية سردية معدودة حول الاستشراق الروسي، مثال ذلك (الاستشراق الروسي) لمحمد يحيى الخراط[41]، و(حركة الاستشراق الروسي وترجمة معاني القرآن الكريم) لمحمد القزاز[42]، و(مؤتمر حركة الاستشراق الروسي والثقافة العربية) لخالد بيومي[43]، و(المدرسة الاستشراقية الروسية) لمحمد بن عبد الله العامر[44]، وغيرها[45].

ولا شك في أن شحّ المصادر التي تتناول الدراسات الاستشراقية الروسية يثير تساؤلات عدة عن دور المثقف والمؤسسة العربية في تغطية العجز، ما دفع مؤسسات

(39) يكاد يتفق الباحثون على أن مرحلة يلتسن شكّلت تيها حقيقيًا عانت فيها روسيا ما بعد تفكك الاتحاد السوفياتي من انعدام الوزن الداخلي والهوان الخارجي، وكأنها عشرية سوداء ما لبثت أن انقشع غبارها مع الدخول في مرحلة بوتين.

(40) انظر: ميشيل برونو، أوراسيا: قارة، إمبراطورية، أيديولوجيا أو مشروع. كما يناقش الحمزة بشكل عام ومختصر هذه النظريات في معرض حديثه عن (سؤال الهوية الروسية) وأصول الروس (محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص112-122).

(41) محمد الخراط، "الاستشراق الروسي". مجلة المعرفة، العدد 568، (2011)، ص103-122.

(42) محمد القزاز، "حركة الاستشراق الروسي وترجمة معاني القرآن الكريم"، مجلة دراسات استشراقية، العدد 1، (صيف 2014)، ص231-246.246.

(43) خالد بيومي، "مؤتمر حركة الاستشراق الروسي والثقافة العربية"، مجلة دراسات استشراقية، العدد السادس، (شتاء 2016)، ص201-206.

(44) محمد العامر، "المدرسة الاستشراقية الروسية"، مجلة كلية دار العلوم، العدد 39، الإصدار 139، (2022)، ص621-672.

(45) كما نشرت العديد من الأبحاث المتصلة بالموضوع، ولعل من أبرز ما نشر ولم يتسنّ لي الاطلاع عليه (وقائع ندوة: الحوار العربي الروسي في القرن الحادي والعشرين: تفاعل حضارتين وتاريخ من العلاقات المتبادلة)، وهي ندوة عقدت في مدينة الحمامات في تونس (23-25 يونيو 2003) ونشرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام 2004. كما قدّم ماجد بن عبد العزيز بن ناصر التركي - رئيس مركز الإعلام والدراسات العربية الروسية في الرياض عشرات الأعمال القيمة من ابحاث لمستشرقين روس ودراسات عن المستشرقين.

من مثل المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات إلى نشر الترجمات عن اللغة الروسية فيما يتعلق بالدراسات الاستشراقية.

سادسًا: كتاب ((الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي))

يمثل الكتاب لبنة مهمة في دراسات الاستشراق الروسي، ويختلف الكتاب-كما سنعرض أدناه- عن النزر القليل ممّا نشر سابقًا، من حيث البناء المنهجي والتناول والاتساع في عرض المحتوى.

وبالنظر إلى تناول الحمزة موضوعَ الاستشراق الروسي، نرى التحلل من الذات (الدونيوية) أو حتمية اختيار الموقف المناوئ أو المنافح عن موضوعه، ولذا فإن أسلوبه جاء بسردية أرخ فيها الاستشراق الروسي ببراعة بالغة مع الحرص على النأي بالنفس عن إصدار الأحكام، ما ساعد في تكوين صورة متوازنة عن موضوع البحث نفسه، ولم ينشغل كثيرًا في معضلة (سلطة التمثيل) التي يوجّهها الاستشراق (الغربي) وارتباطه بمفهومات التطويع والسيادة الذي واجهه سعيد في كتاباته، وتجلّت في إلحاقه التعديلات المختلفة -الاجتماعية والتاريخية والمعرفية- بالرابط الكولونيالي لإنتاج المعرفة الاستشراقي[46].

أما منهجية المستشرقين -عند سعيد- فقد استدعت أسلوبًا تحليليًا نقديًا للمنطلقات التأصيلية الفلسفية للمنهج الذي اتبعوه قبل النظر في النتائج التي خلصوا إليها وتصدير الإبستمولوجية الخاصة بهم من خلال تمثّلات مكرورة، وممّا ساعده في ذلك التوجيه وجود كتب تفي بالغرض وتعرض المسألة من بعدها السردي[47]، وهو خلاف المنهج الفلسفي الذي ينطلق منه الحمزة في كتابه، إذ لم يجد في ما نشر قبله جوابًا شافيًا للاستعراض الدقيق والموسوعي العميق للمدرسة الروسية بمراحلها وأعلامها وتوجهاتهم[48].

وامتزجت دراسة الأكاديمي السوري الروسي محمود الحمزة في كتابه (الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي) بالتجربة الذاتية لأكاديمي نشأ في المؤسسة الأكاديمية الروسية، فغدت دراسته استرجاعية امتزج فيها (الآخر) الروسي بـ(الأنا) العربي، ما ساعد القارئ على فهم الواقع الاستشراقي الروسي، وكأنّه رحلته الخاصة التي يخوض بنا غمارها تتسم بنقد الذات. إذ كان نفسه جزءًا من الفعل الاستشراقي بنشره عددًا من البحوث في هذا المضمار[49]، كما يتضّح بجلاء الارتباط العضوي والموضوعي لمؤلف الكتاب حين يسرد فيها روايته الخاصة الشخصية عن المرحلة أو الأعلام الذين يتناولهم في ثنايا الكتاب[50]، وخاصة في الخاتمة التي توّجت اختلاط الأنا بالآخر والشعور بالهمّ والمسؤولية في آن معًا[51]. وقد وظّف الحمزة الجوانب مجتمعة في محاورته الفكر الاستشراقي الروسي، ونقله من مصادره الأولية لمعايشته وانتمائه الشعوري لكلتا الثقافتين العربية والروسية[52]، وهو ما بدا واضحًا من محاولاته الدؤوبة تبرئة ساحة الاستشراق الروسي من سبّة المصطلح وحمولاته السلبية[53].

(46) حميد دبآشي، ما بعد الاستشراق: المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب.

(47) إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ص63، حميد دبآشي، ما بعد الاستشراق: المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب، ص17.

(48) محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص2022.

(49) انظر الحمزة يتحدث عن خبرته الشخصية في العمل على الكتاب وعدد من الأبحاث مع المستعربة مريم روجانسكايا وغيرها (محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص445-447)، ثم قائمة الأبحاث التي قام بها في قائمة المصادر والمراجع في نهاية الكتاب (الحمزة 452-453).

(50) ليس أدلّ على ذلك تلك الروايات الشخصية التي يسوقها لنا الحمزة بأسلوب مفعم بالعاطفة مع التزامه بمنهجه العلمي الرصين، تلك الرواية المؤثر التي تحدث فيها عن المستعربة غالينا ماتفييفسكايا (محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص322-323). يروي الحمزة بعض تجاربه في ثنايا الكتاب فتراه يتحدث عن التغيرات السلبية -حسب وصفه- في إدارة المعهد وكيف أثّرت على مسيرته الوظيفية، ثم تأثر الحقل بتخفيض النفقات وهو ما يتناوله بحرقة من عايش هذه الأزمات لا الواصف لها من الخارج (محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص445-446).

(51) يوضّح الحمزة المهمّة التي قام بها في قوله في خاتمة كتابه: ((لقد أرحت ضميري بكتابة هذا الكتاب، لأنني حققت أحد أحلامي العلمية، وهو تسليط الضوء على مساهمات العلماء الروس في دراسة العلوم العربية في القرون الوسطى)). (محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص450).

(52) عايش البروفيسور الحمزة حقبتين مهمتين من حقب التاريخ الروسي وتمثّله العميق لما عنته مدرسة الاستشراق السوفياتية، ثم مرحلة التفكك التكويني والفكري الأيديولوجي لتلك المنظومة ومسارعة الخطى نحو الليبرالية الغربية دون قيود في مرحلة انعدام الوزن للأمة الروسية، ثم معايشته للمرحلة البوتينية الحديثة. وكان في كل ذلك فاعلا في الحقل الذي ندرسه طالبًا وأكاديميًا وسياسيًا.

(53) نجد الحمزة يعيد التأكيد مرة تلو الأخرى في سوق المبررات التي شكّلت الدافع الأكاديمي المتوازن إلى حدّ بعيد، فمن ناحية التأثر يقول: ((وليس صدقة أن يقال بأن الروس يمتلكون روحا شرقية وأنهم أوراسيين (أوروبيين - آسيويين). وقد كتب الكثير عن تأثر الروس وشغفهم بالثقافة العربية والإسلامية)). (محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص63)، ثم ينطلق

ولعل الحاجة في المكتبة العربية إلى مثل هذه المؤلفات كما بيّنا في عرضنا الدراسات السابقة دفعت المؤلف إلى اتباع أسلوب المنهج التاريخي[54] في الكتاب[55]. ولكنّنا وجدنا المؤلف ينطلق في عمله قدُمًا متجاوزًا بعض الاعتبارات المنهجية التي لا يلمسها القارئ، لقدرة الحمزة على تجاوزها في سرديته التاريخية المحكمة والواسعة، ثم لأن عنوان الكتاب يمكّن القارئ من الاستدلال على مشكلة البحث أو تصوّرها إلا في لفتات متناثرة في مقدمة الكتاب،[56] ولا يعدّ هذا الأمر -برأيي- كافيًا، إذ يحسن توضيحه وبيانه بما لا يترك مجالًا للتخرّص. ثم لا نجده مثلًا يتناول الدراسات السابقة -كما هو معمول به في أساليب البحث العلمي- وينقدها، ويعرض لها، ثم يوضّح للقارئ ما يتميز به هذا الكتاب من غيره، وما الجديد الذي سيحاول تقديمه في ثنايا كتابه.

ولكنه في الوقت نفسه نجح نجاحًا كبيرًا في حشد الأمثلة والمعلومات والبيانات بأسلوب متوازن التزم فيه بالتسلسل الزمني الذي أضفى صبغة درامية على الكتاب. ودأب من خلال تقسيمه الكتاب إلى إحالته مرجعًا موسوعيًا ومصدرًا مهمًا في دراسة الاستشراق الروسي، وقد تمكن الحمزة من خدمة الموضوع بتوزيعه فصول الكتاب على مباحث تأسيسية في مجال الاستشراق الروسي، وعرض فيه مدارسه وتأثرها بالسياقات التاريخية والسياسية، والآراء، ومنطلقاتها، وأصحابها من أهل الاختصاص الذين قدّم لنا عرضًا وافيًا لجهدهم، ولا أقول نقدها، إذ لم يكن النقد جزءًا من منهجيته[57].

وقد اجتهد المؤلف باستيفاء المعلومات من مصادرها الأولية، ساعده في ذلك ارتباطه بالموضوع، ومعايشته إياه -كما أسلفنا- ثم معرفته باللغة الروسية، لذا فقد جاء الكتاب غزيرًا من ناحية المحتوى، ويمكن تبصّر أحد الأسباب الرئيسة بالنظر إلى قائمة المراجع التي جاءت شاملة، وحافلة بالمراجع الروسية، وهي ما ينقص القارئ العربي الولوج إليه، ما يعطي انطباعًا بأن الكاتب أثرى المعلومات بما يشكل إضافة نوعية تميز هو بها في اطلاعه المباشر على المصادر الروسية من مِظانّها الأصيلة.

وجاء تقسيم الكتاب إلى سبعة فصول[58]، وهي كالآتي:

1. الفصل الأول: العلاقات الثقافية والروحية بين روسيا والعرب في (1000) سنة (90 صفحة).
2. الفصل الثاني: تاريخ الروس في الأبحاث والمؤلفات العربية (35 صفحة).
3. الفصل الثالث: تاريخ الدراسات الاستعرابية (109 صفحات).
4. الفصل الرابع: تاريخ الاستعراب العلمي في روسيا (71 صفحة).
5. الفصل الخامس: خزائن المخطوطات العربية في روسيا والجمهوريات السوفياتية السابقة (35 صفحة).
6. الفصل السادس: حول تاريخ العلوم العربية في

الحمزة في معرض حديثه عن إسهامات المستشرقين والمستعربين الروس في خدمة الثقافة العربية، فتراه يقول: ((لا بد من التعبير عن تقدير جهود الباحثين الروس على اهتمامهم بالعلوم العربية ودراستها بعمق والتعامل مع إسهامات العلماء العرب والمسلمين بإنصاف وموضوعية. وخاصة لأن المستعربين الروس أكدوا على موقفهم في إبراز الجهد القيّم للعلماء العرب وتأثيرهم في تقدم الحضارة الإنسانية بشكل عام والأوروبية منها بوجه خاص)). (محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص309).

(54) يرتكز البحث العلمي المبني على المنهج التاريخي في تناول البحث على عدد من النواحي تباعًا، أولا: تبيان مشكلة البحث، ثانيًا: تعيين فرضيات البحث، ثالثًا: تجميع البيانات والمعلومات بما فيه الدراسات السابقة، رابعًا: نقد البيانات، خامسًا: استخلاص النتائج.

(55) لم يوضّح المؤلف بتفصيل واضح منهجية الكتاب ومبرراته في اختيارها في مقدّمة العمل كما كان متوقّعًا، بل نجدها مطروحة في نتف في الكتاب هنا وهناك، وقد اقتصرت في المقدمة على فقرة واحدة بسط فيها منهجية البحث بقوله: ((ونميز في تاريخ دراسة العلم العربي في روسيا والاتحاد السوفياتي (سابقًا) جانبين: فمن جهة التسلسل الزمني لهذه الدراسة، ومن جهة أخرى إشكالية الدراسة. وفي نفس الوقت فهما مرتبطتان بشكل قوي مع بعضهما البعض)). (محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص24)، ثم ما يلبث أن يكرر العبارة نفسها قبل عرضه للمستشرقين والمستعربين الروس في ثنايا الفصل الثالث بقوله: ((ونميز في تاريخ دراسة العلم العربي في روسيا والاتحاد السوفيتي جانبين مرتبطين بقوة فيما بينهما: التسلسل الزمني لهذه الدراسة، وإشكالية الدراسة ومواضيعها... انطلاقا من مبدأ الترتيب الزمني، نتوقف باختصار عند تاريخ الاستعراب الروسي، ومن ثم ننتقل إلى تاريخ دراسة العلم العربي في روسيا والجمهوريات السوفياتية سابقًا)). (محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص161).

(56) يمكن أن نستشفّ مشكلة البحث التي يرنو المؤلف لتناولها في مصنفه في قوله: ((ويهدف الكتاب إلى إطّلاع [إطلاع] العالم على الدور الهائل للمستعربين الروس في دراسة التراث العربي والإسلامي في القرون الوسطى. ويعتبر الكتاب رسالة للمهتمين بالتراث والثقافة للتعرف على أشهر المستعربين والباحثين الروس في تاريخ وفلسفة العلوم العربية ...))، ثم يطلق مبرّرًا شخصيًا لاختياره قائلا: ((كما أنني أحقق رغبتي بنشر بعض أبحاثي العلمية المتعلقة بتاريخ الرياضيات العربية في القرون الوسطى...)). (محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص25).

(57) يجد القارئ راي المؤلف واضحًا في عدد من التعليقات في الكتاب يعبّر فيها عن رأيه في المدرسة الروسية للاستشراق، وقد عرضنا بعضها أعلاه، ولكننا هنا نقتبس من المقدمة بعد طرحه مشكلة البحث في الفقرة التي سبقتها، فيقول: ((وأرى أن من واجبنا -عربا ومسلمين- أن نمد يد العون والدعم للمستعربين الروس، الذين قضوا جل حياتهم المهنية مع المخطوطات العربية، سواء بالقيام بترجمتها أو دراستها ونشرها. ولأنهم قالوا كلمة منصفة وعادلة بحق ذلك التراث العلمي والحضاري العظيم. وهؤلاء العلماء يستحقون منا كل الاحترام والتقدير)). (محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص 25)، وهو ما ينعكس في أخر فقرة في خاتمة الكتاب، إذ يقول: ((لقد أرحت ضميري بكتابة هذا الكتاب، لأنني حققت أحد أحلامي العلمية، وهو تسليط الضوء على مساهمات العلماء الروس في دراسة العلوم العربية في القرون الوسطى)). (محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص450).

(58) يعرض المؤلف لفصول الكتاب بإيجاز في مقدمة الكتاب (محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص25-28).

المغرب العربي والأندلس (11 صفحة).

7. الفصل السابع: مكانة العلم العربي وأسباب تراجعه (55 صفحة).

ونجد ترابطًا عضويًا وموضوعيًا يتدرّج فيه المؤلف لصياغة سرديته حول الاستشراق الروسي وأعلامه ومؤسساته، ثم يلتفت بالقارئ إلى موضوع منفصل من حيث اتصاله بعنوان الكتاب والرابط المنهجي بإضافة الفصلين الأخيرين اللذين يصلحان في عنوان منفصل.

وممّا يتميز به هذا الكتاب من غيره من المصنفات السابقة التركيز على الاستعراب العلمي، وإفراد فصل خاص به[59]، وهو مبحث يتجاوز بنا المألوف في دراسات الاستشراق المرتكزة على الجوانب الثقافية والأدبية عمومًا بوصفها الحوامل المنطقية للأيديولوجيات والتمثلات حول الآخر. وينطلق المؤلف في استطرادات في الشرح الرياضي أو العلمي البحت بحكم معرفته العميقة بهما في مناقشات تفصيلية حول موضوعات تخصصية في ثنايا الكتاب لا يطال القارئ العام فهمها أو التعامل معها[60].

وشمل الكتاب أيضًا قائمة مصادر ومراجع شاملة، إضافة إلى مقدمة وخاتمة.

سابعًا: خلاصة

ينبغي ألّا ننجرّ في مبحث الدراسات الاستشراقية أو الاستعرابية إلى الاختيار الحتمي بين مربعي الدفاع أو الدعم لكل ما يكتب عن حضارة العرب أو المسلمين. وألا تتحوّل عملية الدفاع عن الماضي إلى عملية إلهاء عن بناء الحاضر والمستقبل. وبذلك نبتعد عن الخضوع للتفسيرات والتمثلات الغرائبية غير الحقيقية بل نشكل الوعي الذي نريده لصورتنا بأنفسنا. ولا ينبغي أن ندخل في حالة استرخاء لشعورنا بالفخر مما قدّمه غيرنا لحضارتنا بل ينبغي علينا الاستجابة للمنهات الحضارية، وهو الأمر الذي يحاول الوصول إليه الكتاب الذي بين أيدينا.

(59) أفرد الحمزة الفصل الرابع للدراسات العلمية تحت عنوان „تاريخ الاستعراب العلمي في روسيا" (محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص 264-335).

(60) انظر: محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص266-268، 280-292، 398-408، 424، 433-444.

ومما لا شكّ فيه أن الدراسات الاستعرابية والاستشراقية عمومًا ساعدت في تكوين فهم أفضل لأنفسنا من خلال عيون ناقدة على الرغم من قساوتها في بعض الأحيان إلا أنها قد تعكس واقعًا لا بد من تحسينه أو التعامل معه. ومن خلال سعيها لإنتاج هذه المصادر التي تخدم مؤسساتها الأكاديمية والسياسية سخّرت طاقاتها ومواردها الحديثة أو المبتكرة لخدمة بعض عناصر تراثنا والمحافظة عليها من مخطوطات[61] أو مصادر، وتنشيط مدارس التحقيق، أو إقامة مكتبات ومراكز دراسات، وإرسال البعوث العلمية إلى بلادنا. وأسست لبيئة نشاط علمي يمكن أن يستثمر في تأسيس حوار موضوعي معمّق لأولويات البحث العلمي التي تخدم الطرفين، بغية الوصول إلى تشكيل صورة دقيقة للآخر العربي المسلم في العقل الروسي، والإجابة عن مفهومات خاطئة ترسّخت وتكلّست في مفاصل هذه المؤسسات العلمية، فباتت رهينة مقولات مكرورة لا ترتكز إلى المنهجيات العلمية الأساس التي قامت عليها تلك المؤسسات نفسها.

من المؤسف حقًا بعد قراءة الكتاب والاطلاع على الكنوز التي أماط المؤلف اللثام عنها أن نكتشف حقيقة غفلة المؤسسة الأكاديمية العربية عن فتح قنوات فهم الآخر، وبناء اتصالنا الحضاري معه، وهو الاتصال الذي كان في غالبه من طرف واحد، وهو طرف مدرسة الاستعراب الروسية مقابل تجاهل من الطرف الآخر، إذ وقع الطرف العربي في هذه المعادلة في فخ ثقافي مدفوعًا بتأثيرات أيديولوجية مركّبة تجاه الفكر الشيوعي والشرق-ثقافي، لنقع في مفارقة غريبة ضحية تشويه الآخر الشرقي المنطلق من الغرب الذي نحن جزء منه.

نهاية، أظن أن كثيرًا من المؤسسات الأكاديمية يمكن أن تفيد من هذا الكتاب سواء في مساراتها التدريسية أو البحثية، إذ يفتح بابًا مهمًا وتساؤلات عميقة حول صياغتنا واقعنا مقابل الآخر الذي تربطنا به صلات تمتد ما يقارب ألف عام من دون أن نعير بحق ما يساعد هيئاتنا ومؤسساتنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على الولوج الواعي في احتكاك حضاري يقوم على التعاون والمشاركة.

(61) يقول الحمزة: ((إن روسيا تمتلك كنوزًا من التراث العربي والإسلامي، وهي تحافظ عليه. لا بل قام العلماء الروس منذ ثلاثمائة سنة بدراسة هذه المخطوطات ونشر محتوياتها. وهذه خدمة عظيمة في مجال إحياء التراث العربي والإسلامي)). (محمود الحمزة، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي، ص296).

المصادروالمراجع

1. الجنابي. ميثم، الاستشراق والاستعراب الروسي (المرحلة التأسيسية)، (تورنتو: المركز الأكاديمي للأبحاث، 2019).

2. الحمزة. محمود، الاستشراق الروسي والعالم الإسلامي: من تاريخ الاستشراق ودراسات الاستعراب العلمي في روسيا، (الدوحة: عن مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث للأكاديمية، 2022).

3. الخراط. محمد، "الاستشراق الروسي". مجلة المعرفة، ع: 568، (2011).

4. الساموك. سعدون، الاستشراق الروسي: دراسة تاريخية شاملة، ط1، (عمّان: دار المناهج، 2003).

5. العامر. محمد، "المدرسة الاستشراقية الروسية"، مجلة كلية دار العلوم، ع: 39/ 139، (2022).

6. العطاوي. عبد الرحيم، الاستشراق الروسي: مدخل إلى تاريخ الدراسات العربية والإسلامية في روسيا، ط1، (الرباط: المركز الثقافي العربي، 2002).

7. القزاز. محمد، "حركة الاستشراق الروسي وترجمة معاني القرآن الكريم"، مجلة "دراسات استشراقية، ع: 1، (صيف 2014).

8. المسلّاتي. مصطفى، الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ط1، (طرابلس: دار اقرأ، 1986).

9. الموسوي. محسن، الاستشراق في الفكر العربي، ط1، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1993).

10. برونو. ميشيل، أوراسيا: قارة، إمبراطورية، أيديولوجيا أو مشروع، معاوية سعيدوني (مترجمًا)، جان جبور (مراجعًا)، ط1، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، 2021).

11. بيومي. خالد، "مؤتمر حركة الاستشراق الروسي والثقافة العربية"، مجلة دراسات استشراقية، العدد السادس، (شتاء 2016).

12. دبّاشي. حميد، ما بعد الاستشراق: المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب، باسل وطفه (مترجمًا)، ط1، (ميلانو: دار المتوسط، 2015).

13. سعيد. إدوارد، تعقيبات على الاستشراق، صبحي حديدي (مترجمًا ومحررًا)، ط1، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1996).

14. سعيد. إدوارد، الثقافة والإمبريالية، كمال أبو ديب (مترجمًا ومقدمًا)، ط1، (بيروت: دار الآداب، 1997).

15. سعيد. إدوارد، تغطية الإسلام، ترجمة: محمد العناني (مترجمًا)، ط1، (القاهرة: دار رؤية، 2005).

16. سعيد. إدوارد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، محمد العناني، (مترجمًا ومقدمًا)، ط1، (القاهرة: دار رؤية، 2006).

17. عبد الفتاح. فاطمة، إضاءات على الاستشراق الروسي: دراسة، ط1، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2000).

- هذا العدد -

اللجوء السوري في العالم الغربي

ضرورات الاندماج وتحولات الهوية

علاء رشيدي

تجليات المنفى في كتابات (أصوات نسائية في المنفى)

إيناس حقي

علاقة اللاجئات بالوطن والديار والأغراض في المنفى

طارق عزيزة

اللاجئون السوريون في ألمانيا والمشاركة السياسية والمدنية

علياء أحمد

تحدّيات العلاقات الأسرية والتربوية لدى العائلات السورية اللاجئة والمهاجرة في ألمانيا

طلال مصطفى وفراس حاج يحيى

الهوية الاجتماعية ودورها في اندماج اللاجئين السوريين في فرنسا

عمارة عمروس

اللجوء السوري وهاجس الأمن والهوية الوطنية في أوروبا

علي سفر

الشّخصية السورية في السينما العالمية

ISSN 25481339
9 770254 813398

مركز حرمون للدراسات المعاصرة
Harmoon Center For Contemporary Studies

قلمون
المجلة السورية للعلوم الإنسانية